

السيرة- سيرة الصحابييات الجليلات - بنات النبي الكريم -السيدة فاطمة الزهراء الدرس (٣-٣):
سيرة السيدة فاطمة الزهراء ٣

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-٠٨-٠٣.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً، وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً، وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين، أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم، ومن وحول الشهوات إلى جنات القربات .

لماذا لقبت فاطمة بأم أبيها، وما هو الشعور التي كانت تبادله لأبيها، وهل كان النبي يبادلها نفس الشعور:

أيها الأخوة الكرام، لا زلنا مع سير الصحابييات الجليلات رضوان الله عليهن أجمعين، ومع سيرة السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها وأرضاها، ومع الدرس التاسع والعشرين .
أيها الأخوة الكرام، قضت فاطمة حياتها كلها، وهي تحت أنظار أبيها، كانت قريبة من أبيها أشد القرب، لم تغب عن لمحاته إلا ساعات خروجه من الدار، وقد كانت شديدة التعلق به والاهتمام، حتى كنيته: بأم أبيها، من شدة تعلق السيدة فاطمة بسيدنا رسول الله كنيته أم أبيها، أي كأنها أم له من شدة محبتها، وتعلقها، وحرصها، وخدمتها، كان صلى الله عليه وسلم شديد التعلق بها أيضاً .
الآباء يعرفون هذه الحقيقة: البنات أقرب إلى آبائهم من البنين، لأن المرأة عاطفتها جياشة ، وفاؤها شديد، وأقرب للفطرة، حتى إن النبي عليه الصلاة والسلام لما زوجها علياً، أسكنها بيتاً ملاصقاً لحجراته الملاصقة لمسجده، وكان عليه الصلاة والسلام إذا عاد من غزواته، أو من سفره، ابتدأ ببيت ابنته فاطمة، ثم يطوف بعدها على بيوت نسائه .
روى ابن عبد البر عن أبي ثعلبة، قال:

((كان عليه الصلاة والسلام، إذا قدم من غزو، أو سفر، بدأ بالمسجد، فصلى فيه ركعتين، ثم

يأتي فاطمة، ثم يأتي أزواجه))

وهذه السنة، تكريم البنت من السنة، فالحقيقة تكريم البنت يقوي مركزها عند زوجها، البنت الشرف معوان يحجزها عن مخالفة الشرع .

لذلك قالوا: إنه لم يكن أحدٌ أشد حزنًا على فراق رسول الله من فاطمة على الإطلاق سوى أبي بكر رضي الله عنه .

كيف خبر النبي فاطمة بدنو أجله حتى لا تفجع على هذه المصيبة ؟

وقد أدرك عليه الصلاة والسلام أنه على وشك مغادرة الدنيا، لذلك راح يمهد للسيدة فاطمة بإخبارها، بأن أجله قد اقترب، لئلا تتفاجأ بالمصاب الذي لا تحتمله، أراد أن يبلغها .
وبالمناسبة: لكرامة المؤمن عند الله، يشعره بدنو أجله، النبي عليه الصلاة والسلام لما نزل قوله تعالى:

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ
وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾

[سورة النصر الآية: ١-٣]

هذه السورة فيها نعي النبي عليه الصلاة والسلام، كيف لا؟ وقد قال الله عز وجل:

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾

[سورة الزمر الآية: ٣٠]

أي أنك لا بد أن تموت، هذه سنة الله في كل خلقه، والآية الثانية:
﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ
عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾

[سورة آل عمران الآية: ١٤٤]

فمن شدة محبة الصحابة الكرام للنبي عليه الصلاة والسلام، ومن شدة تعلق السيدة فاطمة بأبيها،
هذه الآيات تفرؤها، ولكن لم يخطر على بالها، أنه سيموت، لذلك خشي النبي عليه الصلاة
والسلام وقع المصاب الأليم على نفسها، فأخذ يبسر لها ببعض الشيء عن رحيله من هذه الدنيا
إلى عالم الآخرة، وأن ذلك قدر الله عز وجل، قال تعالى:

﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾

[سورة فاطر الآية: ٤٣]

الحقيقة: حينما أملت وعكة شديدة برسول الله صلى الله عليه وسلم في ليالٍ بقين من صفر في
السنة الحادية عشرة للهجرة، ظن آل بيته والمسلمون، أنها وعكة طارئة، لا تلبث أن تزول، دون
أن يفكر أحد أنه مرض الموت، وبقي النبي عليه الصلاة والسلام أسير مرضه لا يغادر فراشه،
وكان المسلمون يعودونه في مرضه، وقلوبهم متعلقة به، تأمل له من الله تعالى الشفاء العاجل،
وكان جميع أهله لا يتركونه، وهم في أشد لهجة بالدعاء إلى الله عز وجل، أن يشفي رسوله صلى
الله عليه وسلم، ولا سيما فاطمة، وعلي، والحسن، والحسين، وأخواتهما زينب، وأم كلثوم، وكل
زوجاته الكريمات، أخذن يسألن الله عز وجل أن يعافي نبيه صلى الله عليه وسلم.
عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ:

((كُنَّ أَزْوَاجُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَهُ لَمْ يُغَادِرْ مِنْهُنَّ وَاحِدَةً، فَأَقْبَلَتْ فَاطِمَةُ، تَمْشِي مَا
تُخْطِي مَشِيَّتَهَا مِنْ مَشِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا، -أشبه إنسان برسول الله

فاطمة، ما تخطى مشيتها مشية رسول الله، قد يسأل أحدكم: ما تخطى مشيتها مشية، لم مشية بالكسر؟ نحن عندنا مصدر الهيئة، والمصدر مرة، مصدر الهيئة مكسور الميم، مصدر المرة مفتوح - فلما رآها، رحب بها، فقال: مرحباً بابنتي، ثم اجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثم سارها، همس في أذنها، فبكت بكاءً شديداً، فلما رأى جزعها، سارها الثانية فضحكت، فقلت لها: خصك رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين نسائه بالسرار، ثم أنت تبكين، فلما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم سألتها: ما قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالت: ما كنت أفشي على رسول الله صلى الله عليه وسلم سره، قالت: فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت: عزمت عليك بما لي عليك من الحق لما حدثتني ما قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: أما الآن فنعم، أما حين سارني في المرة الأولى، فأخبرني أن جبريل كان يعارضه القرآن في كل سنة مرة أو مرتين - أي يتلو أمامه القرآن مرة - وإنه عارضه الآن مرتين، وإني لا أرى الأجل إلا قد اقترب - استنبط النبي عليه الصلاة والسلام أن جبريل لما عارض، أي تلا القرآن على النبي مرتين، أنها السنة الأخيرة في حياته - فاتقي الله واصبري، فإنه نعم السلف أنا لك، قالت: فبكت بكائي الذي رأيته، فلما رأى جزعي، سارني الثانية، فقال: يا فاطمة، أما ترضي أن تكوني سيدة نساء المؤمنين، أو سيدة نساء هذه الأمة، قالت: فضحكت ضحكي الذي رأيته))

[أخرجهما البخاري ومسلم واللفظ له في صحيحهما]

هكذا عالج النبي عليه الصلاة والسلام وقع المصيبة على ابنته فاطمة قبل حصولها، رافة منه عليها ورحمة .

كتعليق: أي إنسان تخبره أنك سوف تموت بعدي سريعاً يضحك؟! مستحيل، لماذا ضحكت؟ لتقتها بما عند الله من إكرام لها، الإنسان حينما ينقل اهتماماته إلى الدار الآخرة تسعد الدنيا، حينما ينقل اهتماماته إلى الدار الآخرة، حينما يقدم الأعمال الصالحة تلو الأعمال، أسعد شيء له أن يلقي الله عز وجل، لذلك المقياس دقيق، ربنا عز وجل خاطب اليهود:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ﴾

[سورة الجمعة الآية: 6-7]

المؤمن حينما يكون عمله صالحاً، يتمنى لقاء الله، وحينما يكره لقاء الله، يكون عمله سيئاً، قال تعالى:

﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾

[سورة الجمعة الآية: 7]

صار مقياس، الإنسان المستقيم الذي له أعمال صالحة، دخله حلال، إنفاقه حلال، بيته إسلامي، لا توجد عنده مشكلة، لذلك يدعو الله عز وجل أن يكون من أهل الجنة .

في أي بيت تمرض النبي من بيوت زوجاته في اللحظة الأخيرة من عمره، وهل كانت تزوره فاطمة، وماذا تصنع؟

ولقد بقيت فاطمة، ترقب أباها على تخوفٍ، حتى إذا رأته بعد أيامٍ قد تحامل على نفسه، يدور على نسائه أمهات المؤمنين كسابق عهده، راودها الأمل بشفائه .
بالمناسبة: كل داء له دواء، وهذا الحديث يعطي الإنسان أمل كبير:
((لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ))

[أخرجه مسلم عن جابر في الصحيح]

المريض يتفاعل، والطبيب يشعر أنه مقصر إن لم يبحث عن الدواء، فحافز للطبيب أن أي مرض له دواء، وطمأنينة للمريض لا تفلق، إلا مرض الموت، مرض الموت ليس له حل، فإذا كان الله عز وجل كتب للإنسان أنه سيموت، وطبعاً سيكون هذا الموت، بسبب مرض من الأمراض، هذا المرض يتم إلى أن ينتهي بالموت، فالإنسان يحضر حاله؛ في أمراض تميل نحو الشفاء، في أمراض تميل نحو التفاقم، إذاً: هو مرض الموت .

راودها الأمل بشفائه، ولكنه لم يصل إلى بيت ميمونة أم المؤمنين، حتى اشتد عليه وجعه ، فأقام عندها وقتاً، ثم دعا زوجاته، يطلب إليهن ويستأذنهن في أن يمرض في بيت أم المؤمنين عائشة، فيبادرن إلى امتثال أمره، وكانت كل واحدة تأمل أن يكون مرضه في بيتها، تشریفاً لها . وكانت فاطمة كثيراً ما تتردد على بيت عائشة، تقوم إلى جانب أبيها الذي أثقله المرض، تخدمه، وتسهر عليه مع عائشة، تشكو بثها وحننها إلى الله تعالى، وتتجمل بالصبر على قضاء الله تعالى وقدره، ولسانها يلهج إلى الله سبحانه بالدعاء، أن يخفف عن رسوله آلام وجعه .

هل فهم أبو بكر مقولة رسول الله: (إن عبداً من عباد الله...)، وبماذا أمر النبي الناس، وهل استغفر لأهل البقيع ؟

وفي فترات سكون الألم، كان عليه الصلاة والسلام، يخرج إلى المسجد، فيصلي بالناس، وفي يوم الجمعة، خرج عاصباً رأسه، حتى جلس على المنبر، ثم كان أول ما تكلم به، أنه صلى على أصحاب أحد، أي دعا لهم، واستغفر لهم، وأكثر من الصلاة عليهم، ثم قال:

((إِنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، قَدْ خَيْرَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَ اللَّهِ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللَّهِ .

فهم الصديق أنه يعني نفسه، فبكى، وقال: يا رسول الله، بل نفديك بأرواحنا، وأولادنا وأنفسنا، فقال عليه الصلاة والسلام: عَلَى رِسْلِكَ يَا أَبَا بَكْرٍ))

[أخرجهما البخاري ومسلم في صحيحهما]

بالمناسبة: أيها الأخوة، في للنبي قول:

((وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا مِنْ أُمَّتِي لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ))

[أخرجه البخاري عن أبي سعيد الخدري في الصحيح]

قال:

((ما ساءني قط فاعرفوا له ذلك))

لذلك من هو الحبيب؟ هو الله، إذا أحبك الله، ألقى حبك في قلوب الخلق، إذا أحبك الله خدمك أعداؤك، وإذا لم يحبك الله، تولى عنك أحبابك، فأَيُّما إنسان أكرمه الناس، واحترموه، وأحبوه، فهذه محبة الله، وإذا أهانوه، وقسوا عليه، فهذا تأديب الله عز وجل، الأصل هو الله، إذا أحبك الله، أحبك الخلق، وإذا أبغضك الله، أبغضك الخلق، ألقى بغضك في قلوب الخلق، والطريق إلى الله سالك، والقرب منه سهل، ولا شيء تقترب به إلى الله كطاعته، وطاعته معروفة؛ طاعته غير تعجيزية، هناك أشخاص يضعون لك شروطاً تعجيزية، طاعته سهلة، قال تعالى:

﴿لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْسًا لَهَا وَوَسْعَهَا﴾

[سورة البقرة الآية: ٢٨٦]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾

[سورة الحجرات الآية: ١٣]

((يا سعد، لا يغرنك أنك خال رسول الله، فالخلق كلهم عند الله سواسية، ليس بينه وبينهم قرابة، إلا طاعتهم له))

الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، يكفي أن تستقيم على أمره يحبك، فإذا أحبك أحبك الخلق .

ثم قال عليه الصلاة والسلام:

((سُدُّوا هَذِهِ الْأَبْوَابَ، الشُّوَارِعَ إِلَى الْمَسْجِدِ، إِلَّا بَابَ أَبِي بَكْرٍ، فَإِنِّي لَا أَعْلَمُ امْرَأً أَفْضَلَ عِنْدِي يَدًا فِي الصَّحْبَةِ مِنْ أَبِي بَكْرٍ))

أترى لهذا التقدير؟ أحياناً الإنسان تخدمه، وتخدمه، وتجده ساكناً، تكلم بكلمة، شجع الذي يخدمك، بين مكانته، اشكره، قدر معرفته،

((وكانت تعظم عنده النعمة مهما دقت))

رأى أحدهم قشة على ثوب النبي صلى الله عليه وسلم فأخذها، رفع النبي يديه، قال له:

((أكرمك الله))

وهي قشة، هناك شخص يتلقى خدمات، خدمات، عناية، ثم أمره كما قال ذاك الشاعر:

أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رماني

و كم علمته نظم القوافي فلما قال قافية هجاني

الفرق كبير جداً بين إنسان يقدر المعروف، يقدر الإحسان، يقدر الإكرام، وبين إنسان لا يقدر:

((لا أعلم امرأة أفضل عندي يدًا في الصحبة من أبي بكر))

((ما ساعني قط))

((ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة إلا أخي أبا بكر))

كما خرج صلى الله عليه وسلم إلى بقيع الغرقد قبل اشتداد وجعه، يدعو لهم، ويستغفر لهم. فقد روى الإمام أحمد عن أبي مويهبة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((بِعْتَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ، فَقَالَ: يَا أَبَا مُوَيْهَبَةَ، إِنِّي قَدْ أَمَرْتُ أَنْ أَسْتَغْفَرَ لِأَهْلِ الْبُقَيْعِ، فَاذْطَلِقْ مَعِي، فَاذْطَلِقْ مَعَهُ، فَلَمَّا وَقَفَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، قَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْمَقَابِرِ، لِيَهْنَنَّ لَكُمْ مَا أَصْبَحْتُمْ فِيهِ مِمَّا أَصْبَحَ فِيهِ النَّاسُ، لَوْ تَعْلَمُونَ مَا نَجَّأَكُمُ اللَّهُ مِنْهُ، أَقْبَلْتُ الْفِتْنَ كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يَتَّبِعُ أَوْلَهَا آخِرَهَا، الْآخِرَةُ شَرُّ مِنَ الْأُولَى، قَالَ: ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيَّ، فَقَالَ: يَا أَبَا مُوَيْهَبَةَ، إِنِّي قَدْ أُوتِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الدُّنْيَا، وَالْخُلْدِ فِيهَا، ثُمَّ الْجَنَّةِ، وَخَيْرْتُ بَيْنَ ذَلِكَ وَبَيْنَ لِقَاءِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ وَالْجَنَّةِ، قَالَ، قُلْتُ: يَا أَبَا مُوَيْهَبَةَ، فَخُذْ مَفَاتِيحَ الدُّنْيَا، وَالْخُلْدِ فِيهَا، ثُمَّ الْجَنَّةِ، قَالَ: نَا وَاللَّهِ يَا أَبَا مُوَيْهَبَةَ، لَقَدْ اخْتَرْتُ لِقَاءَ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ وَالْجَنَّةَ، ثُمَّ اسْتَغْفَرَ لِأَهْلِ الْبُقَيْعِ، ثُمَّ انصَرَفَ، فَبَدَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي وَجَعِهِ الَّذِي قَضَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ حِينَ أَصْبَحَ))

[أخرجه أحمد في مسنده]

وَعَنْ أَبِي قَتَادَةَ بْنِ رَبِيعٍ الْأَنْصَارِيِّ، أَنَّهُ كَانَ يُحَدِّثُ: ((أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَرَّ عَلَيْهِ بِجِنَازَةٍ، فَقَالَ: مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاخٌ مِنْهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْمُسْتَرِيحُ وَالْمُسْتَرَاخُ مِنْهُ؟ قَالَ: الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَدَاهَا إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ، وَالْبِلَادُ، وَالشَّجَرُ، وَالذُّوَابُ))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

ما هو المقصود من هذا الحديث ؟

وروى ابن إسحاق عن عبد الله بن زمعة قال: ((لما اشتد برسول الله صلى الله عليه وسلم الوجع، وأنا عنده في نفرٍ من المسلمين، قال: دعا بلالاً إلى الصلاة، فقال عليه الصلاة والسلام: مروا من يصلي بالناس، قال: فخرجت، فإذا عمر في الناس، وكان أبو بكر غائباً، فقلت: قم يا عمر فصلي بالناس، قال: فقام، فلما كبر، سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته، وكان عمر رجلاً جهوري الصوت، قال: فقال النبي عليه الصلاة والسلام: فأين أبو بكر؟ يأبى الله ذلك والمسلمون، فبعث إلى أبي بكر، فجاء بعد أن صلى عمر تلك الصلاة، فصلى بالناس، قال عبد الله: قال لعمر: ويحك، ماذا صنعت بي يا بن زمعة؟ والله ما ظننت حين أمرتني إلا أن النبي عليه الصلاة والسلام أمرك بذلك، ولولا ذلك ما صليت بالناس، قلت: والله ما أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك، ولكني حين لم أر أبا بكر، رأيتك أحق من حضر بالصلاة بالناس))

الإشارة قوية جداً إلى أن الخليفة الذي يكون من بعده هو سيدنا الصديق .

فَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ:

((لَمَّا كَانَ وَجَعُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي قُبِضَ فِيهِ، قَالَ: ادْعُوا لِي أَبَا بَكْرٍ وَابْنَتَهُ فَلْيَكْتُبْ، لِكَيْمَا يَطْمَعَ فِي أَمْرِ أَبِي بَكْرٍ طَامِعٌ، وَلَا يَتَمَنَّى مُتَمَنَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا بِيَّ اللَّهُ ذَلِكَ وَالْمُسْلِمُونَ مَرَّتَيْنِ، وَقَالَ مُؤَمِّلٌ: مَرَّةً وَالْمُؤْمِنُونَ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَأَبَى اللَّهُ وَالْمُسْلِمُونَ، وَقَالَ مُؤَمِّلٌ: مَرَّةً وَالْمُؤْمِنُونَ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ أَبِي، فَكَانَ أَبِي))

[أخرجه أحمد في مسنده]

هل أعجب النبي هيئة المسلمين في صلاتهم في لحظته الأخيرة من الحياة، وماذا قال، وماذا أجاب عن كلمة قالتها ابنته حينما ما رأت عليه ما أرت ؟
وروي عن أنس بن مالك:

((أنه لما كان يوم الاثنين الذي قبض الله تعالى فيه رسوله صلى الله عليه وسلم، خرج إلى الناس، وهم يصلون الصبح، فرفع الستر، وفتح الباب، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقام على باب عائشة، فكاد المسلمون يفتنون في صلاتهم برسول الله صلى الله عليه وسلم، حينما رأوه فرحاً به، وترفجوا، -أي تفرقوا- فأشار إليهم أن اثبتوا على صلاتكم، قال: فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم سروراً، لما رأى من هيأتهم في صلاتهم، وما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن هيئة منه تلك الساعة .

-وفي رواية أخرى قال:

((حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء))

هذا هو العمل، أن تربي أشخاصاً، أن تربي قادة، أن تربي مؤمنين، أن تربي محسنين، أن تربي أناساً يحبون الله، يقيمون أمر الله في حياتهم .
وفي رواية:

((حتى بدت نواجذه))

من شدة فرحه .

فهذه ثمرة العمل، تصور إنساناً زرع شجرة، فلما أينعت وأثمرت، يشعر بسعادة كبيرة جداً؛ فالدعوة إذا أثمرت أناساً مؤمنين، صادقين، ورعين، مستقيمين، دعاة إلى الله عز وجل، فهذا إنجاز كبير جداً- .

قال: ثم رجع، وانصرف الناس، وهم يرون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أفرق، -أي برئ من وجعه، فرحوا الناس، فهذه صحوة الموت، قبل الموت في صحوة، المؤمنون ينتعشون قبل الموت، ليشهدوا أنه لا إله إلا الله، وليكون لقاؤهم بالله عز وجل عن وعي- وقد خاطبهم النبي عليه الصلاة والسلام فقال: أيها الناس سعرت النار، وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، وإني والله ما تمسكون علي بشيء، إني لم أحل إلا ما حل القرآن، ولم أحرم إلا ما حرم القرآن))

أي لا يوجد علي مأخذ، ما أحلت إلا ما أحل الله، وما حرمت إلا ما حرم الله، لكن المعنى المخالف، الذي يحل ما حرم الله له عذاباً أليماً، أو الذي يحرم ما أحل الله .

قالت عائشة:

((رجع إليّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم في ذلك اليوم، حين دخل من المسجد، فاضطجع في حجري، ووجدت رسول الله صلى الله عليه وسلّم يثقل في حجري، فذهبت أنظر في وجهه، فإذا بصره قد شَخَصَ، وهو يقول: اللهم الرفيق الأعلى من الجنة، فقلت: خيّرت واخترت، والذي بعثك بالحق .

-فالآن هناك خيارات في الأرض، لا يعلمها إلا الله؛ إنسان يختار النساء، إنسان يختار الأموال، إنسان يختار السفر، إنسان يختار القوة، إنسان يختار المتع الرخيصة، إنسان يختار الشهادات العليا، إنسان يختار المكانة الاجتماعية، إنسان له هوايات؛ هذا بالحدائق، هذا بالكتب، هذا بالطوايع، هذا باللعب، هذا بالكرة، من هو البطل؟ هو الذي اختار الله:

من أحبنا أحببناه ومن طلب منا أعطيناه

و من اكتفى بنا عما لنا وما لنا كنا له

فالبطولة أن تحسن الاختيار - .

قالت: وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولما ثقل النبي صلى الله عليه وسلم، كانت فاطمة رضي الله عنها حاضرة عنده، ترى ما نزل به من أمر الله تعالى الذي لا مردّ له، فتأخذها العبرات حزناً ولوعةً على أبيها، وهي تراه يدخل يديه في الماء، فيمسح بهما وجهه، ويقول: لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكْرَاتٍ))

[أخرجه البخاري عن عائشة في الصحيح]

إذا قال هذا النبي، فنحن ماذا يجب أن نقول؟ .

قال أنس:

((لما ثقل النبي صلى الله عليه وسلم، جعل يتعشاه، فقالت فاطمة: واكرب أباه، فقال عليه

الصلاة والسلام: لَيْسَ عَلَيَّ أَبِيكَ كَرَبٌ بَعْدَ الْيَوْمِ))

[أخرجه البخاري عن أنس في الصحيح]

إليك هذا القول الذي نعتت فاطمة أباه به، وكلمة الحق الذي صدع بها الصديق حينما سمع بنبأ وفاة النبي، وماذا قال عمر حينما سمع هذه الكلمة؟

فلما مات قالت:

((يا أبتاه، أجب رباً دعاك، يا أبتاه، في جنة الفردوس مأواك، يا أبتاه، إلى جبريل ننعاك))

فلما دفن عليه الصلاة والسلام، قالت فاطمة فرحاً على أبيها، فعن أنس قال:

((لما ثقل النبي صلى الله عليه وسلّم جعل يتعشاه، فقالت فاطمة: واكرب أباه، فقال لها: لَيْسَ

عَلَيَّ أَبِيكَ كَرَبٌ بَعْدَ الْيَوْمِ، فَلَمَّا مَاتَ، قَالَتْ: يَا أْبْتَاهُ، أَجَابَ رَبًّا دَعَاهُ، يَا أْبْتَاهُ، مِنْ جَنَّةِ الْفَرْدَوْسِ

مَأْوَاهُ، يَا أْبْتَاهُ، إِلَى جِبْرِيلَ نَنَعَاهُ، فَلَمَّا دُفِنَ، قَالَتْ فَاطِمَةُ: يَا أُنْسُ، أَطَابَتْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ تَحْتُوا عَلَيَّ

رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التُّرَابَ؟))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

ممکن أن یوضع هذا الإنسان تحت الثرى، وأن یهال علیه التراب، هذه سنة الله فی خلقه ، الموت نهاية كل حی:

واللیل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر

والعمر مهما طال فلا بد من نزول القبر

ویقع الخطب العظیم، ویعم المصاب جمیع المسلمین، ویموج الناس حیارى، حتى وقف أبو بكر، أنا لا أعتقد أن على وجه الأرض إنسان یحب إنساناً كحب الصدیق لرسول الله، لكن أعظم ما فی هذا الموقف، أن هذا الحب ما حمله على الشرك، وقف رضی الله عنه، وقال قولته الشهيرة:

((أَلَا مَنْ كَانَ يَعْْبُدُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْْبُدُ اللَّهَ، فَإِنَّ

اللَّهَ حَيًّا لَا يَمُوتُ، وَقَالَ:

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾

وقال:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ

عَلَى عَقْبِيهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾

-ما من كلمة أبلغ من هذه الكلمة، نحن ديننا دين التوحيد: أشهد أن محمداً عبده ورسوله . أحياناً مرید بسيط، یحب شیخه فیؤلِّهه، یحب شیخه، یعبده من دون الله، سیدنا الصدیق كان مع رسول الله، مع أكبر إنسان، ومع ذلك هذا الحب الشدید، وهذا الهیام، ما دفعه إلى الشرك أبداً. إن مات أو قتل: إن تفید احتمال الوقوع، ونحن عندنا قاعدة، حينما قال الله عز وجل:

﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾

[سورة المائدة الآية: ٦٧]

قال علماء التفسیر: یعصمك من أن تقتل، لأن قتل النبی إنهاءً لدعوته، وإنهاء دعوته تحدی لله عز وجل، لذلك النبی علیه الصلاة والسلام معصومٌ من أن یقتل، والنبی صرف حُرَّاسه لما نزل قوله تعالى:

﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾

[سورة المائدة الآية: ٦٧]

صرف حراسه، فكيف نوفق بین هذه الحقيقة و بین هذه الآية؟:

﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ﴾

[سورة آل عمران الآية: ١٤٤]

الحقيقة: بعد أن بلغ الدعوة؛ يمكن أن يموت، ويمكن أن یقتل، القتل هنا لا يأتي إلا بعد تبلیغ الدعوة، قال تعالى:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾

[سورة المائدة الآية: ٣]

قال: والله لكان الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية، -من شدة حب أصحاب النبي لرسول الله، هذه الآية كأنهم ما سمعوا بها إطلاقاً:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾

[سورة آل عمران الآية: ١٤٤]

قال عمر: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكرٍ تلاها، فالأرض عندئذٍ ما تقلني رجلاي، حتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها))
هو ما كان يصدق ذلك، فلما تلا هذه الآية، عرف أنه قد توفي، ديننا كله حب، من دون حب لا يوجد دين، قال:

((يا رسول الله، إني أحبك أكثر من كل شيء، إلا من أهلي وأولادي ومالي، قال: لما يكمل إيمانك يا عمر، إلى أن قال: والله يا رسول الله، أصبحت أحبك أكثر من نفسي، وأهلي، ومالي، قال له: الآن يا عمر))

فلا بد أن تحب الله، وأن تحب رسوله، وأن تحب المؤمنين، وأحد شروط الإيمان؛ أن تحب المؤمنين، إن لم تحب المؤمنين فمن تحب؟ تحب الكفرة، الفسقة، الفجار، هذا الذي يميل للكفار، والعصاة، والفجّار، ويعادي المؤمنين، حالته خطيرة جداً، يضع نفسه مع أهل الفجور .

وفاتها :

قبل وفاة النبي عليه الصلاة والسلام، أنبأ النبي السيدة فاطمة، أنها أول أهله لحوقاً به، فتوفيت فاطمة الزهراء رضي الله عنها بعد النبي صلى الله عليه وسلم بخمسة أشهرٍ أو نحوها، وكان قد أذهلها المصاب الفادح، وغشيتها من الأحزان على فراق أبيها صلى الله عليه وسلم ما غشيتها، حتى أتاها أجلها، وقضت نحبها .

قال عبد الله بن الحارث:

((مكثت فاطمة بعد النبي صلى الله عليه وسلم ستة أشهرٍ، وهي تذوب من شدة الألم على أبيها))

وقال الحافظ الذهبي: ولما توفي أبوها صلى الله عليه وسلم تعلّقت أمالها بميراثه، وجاءت تطلب ذلك من أبي بكر رضي الله عنه، فحدثها أنه سمع من النبي صلى الله عليه وسلم يقول:

((لا نُورثُ ما تركنا صدقةً))

وقال أبو بكر لها:

((يا حبيبة رسول الله، والله إن قرابة رسول الله أحب إلي من قرابتي، وإنك لأحب إلي من عائشة، ولوددت يوم مات أبوك أني مت، ولا أبقى بعده، أفتراني أعرفك، وأعرف فضلك،

وشرفك، وأمنعك حقك وميراثك من رسول الله؟! إلا أني سمعته صلى الله عليه وسلم يقول: لا نُورثُ ما تركنا صدقةً))

وما أن انقضت الأيام قريباً من أيام الوداع الخالدة، حتى أخذت في التفكير بالاستعداد ليوم الرحيل، فقد بشرها أبوها صلى الله عليه وسلم بأنها أول أهله لحوقاً به، فكانت كثيراً ما تتحدث عن الموت، حتى قرب أجلها .

تقول أم رافع: مرضت فاطمة الزهراء، فلما كان اليوم الذي توفيت فيه، قالت لي: يا أم اسكي لي غسلًا، فاعتسلت كأحسن ما كانت تغتسل، ثم لبست ثياباً لها جدد، ثم قالت: اجعلي فراشي وسط البيت، فاضطجعت عليه، واستقبلت القبلة، وقالت: يا أم، إني مقبوضة الساعة، وقد اغتسلت، فلا يكشفني لي أحدٌ كفنًا، فماتت رضي الله عنها، فجاء علي بن أبي طالب، فأخبرته فاحتملها، ودفنها بغسلها هي، صلى عليها هو والعباس رضي الله عنهم جميعاً، وتوفيت رضي الله عنها ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من شهر رمضان سنة إحدى عشر من الهجرة .

خاتمة القول :

أيها الأخوة، كلما كان عملك طيباً، كان الموت مريحاً، وكان الموت محبباً، وكان الموت عرساً، وكان الموت تحفةً، فكل بطولتك أن تستقيم على أمر الله، وأن تعمل صالحاً حتى يكون الموت محبباً إليك، لأن الموت عند الناس أكبر مصيبة، في حالات كثيرة جداً خوف الناس من الموت لا يوصف، السبب كما قال الله عز وجل مرة ثانية:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ

صَادِقِينَ * وَلَا يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾

[سورة الجمعة الآية: 6-7]

فتمني الموت أو عدم تمني، الموت مقياس دقيق لعملك، لا يوجد عندك مشكلة، لا يوجد دخل حرام، ولا مخالفة، ولا معصية ببيتك، ولا معصية في عملك، والوجهة إلى الله سليمة، وفي قلبك حب، مرحباً بالموت، خطك البياني صاعد صعوداً مستمراً، والموت نقطة على هذا الخط .

والحمد لله رب العالمين